(٣٩) حمدون القصار[١]

ذكر أبي صالح حمدون بن أحمد القصار رحمه الله:

كان رحمه الله من كبار المشايخ، وموصوفًا بالورع والتقوى، فقيهًا عالمًا بالحديث، وله في علم الحديث درجةٌ عالية، وكان في عيوب النفس ذا بصيرةٍ، وكان في المجاهدة والمعاملة في المرتبة الأقصى.

وكلامه كان مؤثِّرًا في القلوب، وكان على مذهبِ الثوري[٢]، ومُريدًا لأبي تراب النخشبي.

وكان في التَّقوى إلى حيث أنه كان عند صديقٍ له، وقد حضرته الوفاة، فتوفّي في الليل، فقام حمدون وأطفأ السراجَ، وقال: انتقلَ هذا السراجُ بموته إلى ورثته، ولا يجوزُ لنا أن نستضيءَ بضوئه بدون رضا الورثة.

نقل أنه كان في نيسابور رجلٌ مشهورٌ بالشطارة والعيارة يُسمّى نوح، فالتقى به حمدون في بعض الطرق، وقال له: ما الفتوة؟ قال: أمّا فتوَّتي ففي أن أخلع القباء وألبسَ مرقعةً، وأشرعَ في التصوف، وأستحيي من الخلق بسبب زِيِّ أهل

---

(١) طبقات الصوفية ١٢٣، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣١، الرسالة القشيرية ٦٩، مناقب الأبرار ٣٣٥، صفة الصفوة ٤/ ١٢٢، المنتظم ٥/ ٨٢، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢٢٦، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٠، الوافي بالوفيات ١٣/ ١٦٥، طبقات الأولياء ٣٥٩، نفحات الأنس ٩١، طبقات الشعراني ١/ ٨٤، الكواكب الدرية ١/ ٥٩١.

(٢) أقام سفيان الثوري (٩٧- ١٦١هـ) مذهبًا فقهيًا مستقلاً، لم يتابع فيه أهل الرأي كل المتابعة، كما لم يتابع فيه أهل الحديث كل المتابعة؛ بل كان وسطًا بين هؤلاء وهؤلاء، ولذلك كانت له مكانته في كلا المدرستين، وكان لمذهبه علماء أتباع في العراق والمغرب، عاش مذهبه وعمل به الناس مدة ثلاثة قرون. انظر موسوعة فقه سفيان الثوري تأليف د. محمد رواس قلعة جي صفحة ٦٠.

التصوف، وأحترز عن المعاصي، وفتوّتك في أن تخلعَ جبَّةَ التصوّف حتى لا تغترَّ بها ولا تغرَّ بها غيرَك. وحاصل هذا الكلام أنّه قال: فتوّتي في حفظِ الشريعة، وفتوّتك في حفظ الحقيقة، وهذا أصل عظيم.

نقل أنه لما ترقّى شأنُهُ في نيسابور قال له أئمَّتُها: أنت اليوم موصوفٌ بالعلم والزهد، وكلامُك مؤثّرٌ في القلوب، فلا بدَّ لك من الاشتغالِ بالوعظ لينتفعَ به الخلائق. فقال: لا يجوزُ أن أُحدِّثَ للناس بالوعظ، ولا أثرَ لكلامي في القلوب، والكلامُ إذا لم يؤثّرْ في القلوب يكون استهزاءً بالعلم، واستخفافًا بالشريعة، وليس بمسلَّمٍ إلاّ لمن يكون سكوتُهُ إيصالاً للدين[1]، وبتكلّمِهِ يرتفع الخلل.

قيل: لأيِّ شيءٍ نجدُ كلامَ السلفِ أكثرَ تأثيرًا في القلوب؟ قال: لأنهم حدّثوا لأجلِ عزِّ الإسلام، ونجاةِ النفس ورضا الربِّ، ونحن نُريد أن نُحدِّثَ لعزِّ النفسِ، وطلب الدنيا، وقبولِ الخلق، لا جرمَ لا يؤثّر في القلوب.

وقال: ينبغي أن يكونُ علمُ الحقِّ بالعبد أَحسنَ من علمِ النَّاسِ به. يعني المعاملة في الخلاء ينبغي أن تكون خيرًا من المعاملة في الملأ.

قال: لا تُظهر سرًّا يجب إخفاؤه عليك أيضًا.

وقال: أوصيكم بأمرين: صحبةِ العلماء، والاحتمال من الجهّال.

وقال: صاحبوا الصوفية؛ فإن وقعتْ منكم سيئةٌ يقبلوا منكم العذر، وإن عملتم حسنةً لا يوقِّرونكم بها، وحينئذٍ لا يحصل لك عُجْبٌ.

منِ اطّلعَ على سيرة السلف يتبيَّنُ له تقصيرُهُ، ويعلمُ أنَّه تأخَّر عن درجةِ الرجال.

يكفيك ما يصلُ إليك من الرزق بلا تعبٍ، إنَّما التعبُ في طلب الزيادة.

من قدرَ على أن يُبصرَ نقصانَ نفسه فليس بأعمى.

من ظنَّ أن نفسه الأمّارةَ خيرٌ من نفسِ فرعون فهو معجب.

---

(١) في (أ): إبطالاً للدين.

أقول: معناه: أنَّ النفسَ من حيث هي نفسٌ منبعٌ للصفات الذميمة، والخصالِ الردية إلاّ من عصمَهُ الله، فالنفسُ لو خلّيت وطبعها تطلبُ ما طلبَتْ نفسُ فرعون لعنه الله، فدعوى الإنسان أنَّ نفسَه خيرٌ من نفس فرعون لعنه الله غرورٌ محضٌ، والغرورُ منهيٌّ عنه في باب الدين، لأنَّ الغرورَ يصيرُ سببًا للكبر والعجب والهوى، ومنها تنشأُ المُهلكات بأسرها، نجّانا الله تعالى منها. والله أعلم.

وقال: إيَّاك وأن تلومَ السكرانَ لأجلِ حظِّ نفسك، اغترارًا بطهارةِ نفسك، ولكن لتكنْ ملامتُك إيّاه نفسك لأجل النهي عن المنكر، وإلاّ توشك أن تُبتلى بما ابتُلي به.

وقال: لا أعلمُ حسنَ الخلق إلاّ في السخاوة، ولا قبحَ الخُلق إلاّ في البخل.

وقال: من زعم أنَّه مالكٌ لشيءٍ فهو بخيل.

أقول: يعني أن يكونَ باذلاً غيرَ جامعٍ، وأنّ المالكَ في الحقيقة هو الله، يُعطي ويمنع، وإذا كان كذلك فالبخلُ لماذا؟ فإنَّ بحرَ رحمة الله تعالى موّاجٌ في الليل والنهار، فكلّما بذلتَ أو أنفقتَ شيئًا، فاللهُ يعوّضُه بأفضل منه. والله أعلم.

قال: الفقيرُ لا يجدُ لذَّةَ التواضع إلاّ في التكبّرِ على الأغنياء.

وقال: التواضعُ أن لا ترى أحدًا يَحتاجُ إليك في الدنيا وفي الآخرة.

منقبةُ الفقير في التواضعِ، فإذا تركَهُ فانخلع من جميع الخيرات.

كثرةُ الأكل رأسُ كلِّ داءٍ.

من تخلّفَ بطلب الدنيا عن الآخرة صارَ ذليلاً حقيرًا؛ إمّا في الدنيا وإما في الآخرة.

احتقرِ الدُّنيا ليعزَّك أهلُها.

وقال عبد الله بن المبارك: أوصاني حمدونُ القصار أن لا أَغضبَ لأجلِ الدُّنيا.

وسئل عنه: من العبد؟ قال: من لا يحبُّ أن يعبدَهُ غيره ـ أي يخدمه غيره[١].

سئل عن التوكُّل، قال: التوكُّلُ أن لو كان عليك عشرةُ آلاف دينار لا تكونُ طامعًا في أموال الناس، ولا آيسًا عن الله سبحانه في قضائه.

قال: التوكّلُ هو التعلّقُ بالله.

قال: تفويضُ الأمورِ إلى الله تعالى خيرٌ من الاشتغال بالتدبير.

وقال: لا يجزعُ في المصائب إلاّ من اتَّهمَ اللهَ عزَّ وجل.

وقال: لا يفرحُ الشيطانُ مثل فرحِهِ بثلاث: قتلِ مؤمن، وموتِ إنسان على كفرٍ، وشخصٍ يكونُ في قلبه خوفُ الفقر.

قال عبد الله بن المبارك: قيل لحمدون في مرضِ الموت: أوص لأولادك. قال: إني أخاف عليهم الغنى أكثرَ ممّا أخافُ عليهم الفقر.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]

وصلِّ اللهم على نبيِّك محمد وآله أجمعين.

* * *

(١) في (ب): يعبده غيره، أو يخدمه كما يخدم الله تعالى.